عبر العقارات
السوق العقاري الذكي
ACROSS REAL ESTATE

هندسة النقل للسنة النبوية بين القبول والرد

د . أحمد بن سعد بن غرم الغامدي

مقدمة: إشكالية المصطلح والمنهج

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعل السنة النبوية بيانًا لكتابه الكريم، والصلاة والسلام على من لا ينطق عن الهوى، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فإن رد السنة النبوية أو تأويلها تأويلاً مذموماً باطنياً ، دعوى قديمة حديثة ، روادها العقلانيون والحاقدون الجاحدون لقبول السنة النبوية وفق المصطلح العلمي الرصين والقواعد التي وضعها المحدثون للقبول والرد وتواتر قبولها عبر العصور الإسلامية .

حتى جاءت المصطلحات المستحدثة في مجال العلوم الشرعية تحمل في طياتها رؤى ومناهج قد تكون جديدة في صياغتها، وقديمة في جوهرها. ومن أبرز هذه المصطلحات التي شغلت الساحة الفكرية والإسلامية في العقود الأخيرة مصطلح "هندسة النقل"، الذي يُقصد به - في سياق السنة النبوية - إعادة قراءة الموروث الحديثي، ونقده، وتصنيفه، وتأويله، وفق مناهج عقلية أو أيديولوجية معاصرة،

بهدف إعادة تشكيل "المقبول" و"المردود" منه، بناءً على معايير قد تخالف في كثير من الأحيان أصول المحدثين النقدية. تقوم هذه الدعوى على فكرة أن علم الحديث التقليدي قد قصر في مهمته، أو أنه كان علمًا شكليًا (إسناديًا) في المقام الأول، وأغفل نقد المتن الذي يجب أن يكون هو الأساس، مما يستلزم "هندسة" جديدة للنقل تعيد بناء السنة بما يتوافق مع العصر، أو العقل، أو القيم الإنسانية المعاصرة.

هذه الرسالة تسعى لتحرير محل النزاع في هذه القضية، وعرض حجج الفريقين: المدافعين عن هذا التوجه أو المستفيدين من مصطلحاته، والرافضين له والمحذرين من خطورته، وبيان الموقف الوسطي المنضبط بضوابط العلم الشرعي.

المحور الأول: مفهوم "هندسة النقل" وأبعاده

ليست العبرة بالمصطلح إذا عرف المراد ،
ومصطلح "هندسة النقل" ليس مصطلحًا تراثيًا، بل

هو مصطلح مستورد من العلوم التطبيقية، ويوحي استخدامه في مجال السنة النبوية بالتحكم الكامل والتصميم المسبق، وكأن السنة مادة خام يجوز تشكيلها بالحذف والإضافة والتأويل التعسفي. وتتخذ هذه الدعوى عدة مظاهر وأبعاد، منها:

1. القراءة التفكيكية للمتون: عبر إخضاع الأحاديث النبوية لمناهج تحليل الخطاب والتفكيكية وما بعد الحداثة، بحيث يُفقد النص سلطته الأصلية ويصبح معنى النص رهينًا بفهم القارئ وسياقه الخاص، مما يفتح الباب لتأويلات لا حصر لها.
2. تقديم نقد المتن على نقد السند: هذه الدعوة في ظاهرها علمية، إذ إن نقد المتن جزء أصيل من علوم الحديث. لكن التطبيق المعاصر لها ينطوي على مغالاة تصل إلى ردّ أحاديث صحيحة الإسناد بدعوى مخالفتها للعقل، أو للعلم التجريبي، أو للقيم الكونية، مع إغفال أن العقل البشري نسبي ومتغير، وأن العلم التجريبي ليس محكمة تفتي في صحة كل خبر غيبي.
3. التأويل العقلاني المفرط (التأويل الباطني

الحديث): وهو صرف النصوص عن ظواهرها ومعانيها المتبادرة إلى معانٍ بعيدة بذريعة أن ظاهر النص غير مقبول عقليًا أو لا يصلح للعصر الحاضر. فيؤولون المعجزات الحسية، كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر، إلى رموز نفسية أو ظواهر كونية مجازية.
4. إعادة تعريف "القطعيات": وذلك بالتشكيك في حجية أخبار الآحاد في العقائد أو التشريعات العامة، أو ردّ الحديث الصحيح الذي يتعارض - في زعمهم - مع مقاصد الشريعة العامة كما يفهمونها هم، لا كما قررها العلماء الأصوليون.

المحور الثاني: أسس القبول ودواعي الدعوة إلى "الهندسة"

يرى أصحاب هذه الدعوة أنهم يقدمون خدمة للإسلام، ويواجهون تحديات حقيقية. ومن أبرز حججهم وأسسهم:

1. ضرورة تنقية السنة من الروايات المشكلة: يجادلون

بأن في كتب الحديث رواياتٍ - ولو كانت صحيحة السند - يشمئز منها العقل، أو يستغلها أعداء الإسلام للطعن فيه، مثل بعض روايات الفتن والملاحم، أو الروايات التي توهم بانتقاص المرأة، أو تلك التي تتعلق بأمور طبية وعلمية تبدو متعارضة مع الكشوف الحديثة. وهم يرون أن تنقية السنة من هذه الروايات واجب حضاري وديني لحماية الشباب من الارتداد وحماية الإسلام من النقد.

2. تجاوز "جمود" المنهج التقليدي: يعتقدون أن علماء الحديث الأوائل برعوا في نقد السند، لكنهم قصروا في نقد المتن، أو أن قواعدهم في نقد المتن لم تكن صارمة بما فيه الكفاية. وعليه، فهم يدعون إلى تأسيس علم "نقد متن" جديد، يستند إلى مناهج العلوم الإنسانية الحديثة كالتاريخانية والأنثروبولوجيا وعلم اجتماع المعرفة.

3. مواكبة روح العصر والكونية: يرون أن الخطاب الديني لكي يكون فاعلاً ومقنعًا للإنسان المعاصر، يجب أن ينسجم مع قيم العصر الكونية مثل حقوق الإنسان، والمساواة المطلقة بين الجنسين، والديمقراطية. ومن

ثم، فإن أي نص حديثي يتعارض ظاهره مع هذه القيم يجب إعادة "هندسته" تأويلاً أو ردًا.

4. فقه المقاصد والمصالح: يتوسعون في العمل بفقه المقاصد والمصالح المرسلة، ويجعلونه حاكمًا على النص الجزئي، فما رآه العقل محققًا للمصلحة قُبل، وما رآه مخالفًا لها رُدّ، حتى لو كان نصًا صحيحًا صريحًا، بحجة أن الشريعة إنما جاءت لجلب المصالح ودرء المفاسد، وهذا هو جوهر الهندسة المقصدية للنص.

المحور الثالث: أسس الرد والتحذير من "هندسة النقل"

في مقابل هذه الدعوى، ينتصب فريق آخر من العلماء والباحثين للدفاع عن المنهج الأصولي في التعامل مع السنة، محذرًا من مغبة الانزلاق وراء هذه المصطلحات البراقة. ويمكن تلخيص حججهم فيما يلي:

1. هدم أسس المعرفة الدينية: "هندسة النقل" تؤدي إلى زعزعة الثقة في الموروث الحديثي برمته، وتجعل العقل الفردي هو الحكم النهائي على النص، مما يعني استبدال الوحي بالعقل، وهدم أحد المصدرين الرئيسين للتشريع. فإذا فُتح باب ردّ الحديث الصحيح لمجرد أنه لم يعجبنا أو لم يفهمه عقلنا، فلن يبقى من الدين شيء.
2. تجاهل تكامل منهج المحدثين: الاتهام بأن المحدثين أهملوا نقد المتن هو اتهام باطل يخالف واقع علم مصطلح الحديث. فقد وضع المحدثون قواعد محكمة لنقد المتن، منها: عدم مخالفة القرآن الكريم، وعدم مخالفة السنة الأصح منها، وعدم مخالفة صريح العقل، وعدم مخالفة الحس والمشاهدة، وعدم مخالفة التاريخ القطعي. وقد طبقوها بحذق، وأعلّوا أحاديث بهذه العلل. لكن الفرق أنهم لم يسلموا عقولهم للهوى، بل جعلوا العقل السليم الفطري حكمًا لا العقل الأيديولوجي المسيّس.
3. وهم التعارض بين النص والعقل: كثير مما يُدعى أنه معارض للعقل هو في الحقيقة معارض للفهم

السقيم أو للعلم النظري القابل للتغير. فكم من حقيقة علمية أثبتها الوحي قبل أربعة عشر قرنًا، ثم جاء العلم الحديث ليكتشفها. كما أن كمًا من النظريات العلمية التي كانت تُعد "مسلمات" و"حقائق" قد انهارت. فكيف نجعل هذا المتغير حكمًا على النص المطلق؟

4. العلمانية المقنعة والتلفيق المنهجي: يُنظر إلى هذه الدعاوى على أنها محاولة لإضفاء الشرعية على العلمانية من داخل النص الديني، عبر تبنّي مناهج غربية في نقد النصوص (مثل النقد التاريخي والتشكيكي للكتاب المقدس) وتطبيقها على السنة النبوية، وهو تلفيق بين منهجين متناقضين: منهج قائم على الإيمان والوحي، ومنهج قائم على الشك وإنكار الوحي.

5. خطر الانتقائية والهدم المنظم: "الهندسة" تعني تصميمًا لنموذج معين من الإسلام مسبقًا (إسلام تقدمي، إسلام نسوي، إسلام سياسي...) ثم إسقاطه على النصوص، فيتم قبول ما يوافق هذا النموذج ورد ما يخالفه أو تأويله. هذه العملية ليست بحثًا عن

الحقيقة، بل فرضًا للأيديولوجيا على النص، وهي هدم للسنة بطريقة انتقائية مقننة ومنظمة.

الموقف الوسط: بين الجمود المذموم والانحلال المرفوض

والحق أن الموقف الصحيح هو الذي يسير على الجادة الوسطى، فيحافظ على ثوابت المنهج العلمي، وينفتح على مستجدات العصر بضوابط. ويمكن إجمال معالمه في النقاط التالية:

1. التمسك بأصول المحدثين مع إحياء فقه نقد المتن: لا يعني الدفاع عن السنة الجمود عند قواعد السند فقط. بل يجب إحياء فقه نقد المتن بالضوابط الشرعية المعتبرة عند الأئمة المتقدمين، وفهم كيفية تطبيقهم له، وتنزيله على المستجدات من قبل الراسخين في العلم، دون تحكم للعقل المجرد أو الذوق الشخصي.
2. التفريق بين الثابت والمتغير: الثوابت النصية

القطعية لا تقبل "هندسة" ولا تأويلاً يعطل دلالتها. أما الظنيات والفروع الفقهية والاجتهادية، ففيها سعة وفهم متجدد بحسب الزمان والمكان والمصلحة، وهذا هو مجال الاجتهاد الفسيح الذي أبدع فيه أئمتنا.

3. التثبت قبل الاتهام: القول بأن حديثًا ما يخالف العقل أو العلم هو قول خطير. لا بد فيه من تثبت عميق، ومعرفة بالعلوم الشرعية والعلوم الكونية الحديثة على السواء. وكثيرًا ما يكون العلاج في فهم النص على طريقة العرب الأوائل وفي ضوء بقية النصوص، لا في رده أو تأويله تأويلاً متكلفًا.

4. تأهيل العقل المسلم لا إحلاله محل النص: وظيفة العقل المسلم هي فهم النص، واستنباط الأحكام منه، والاجتهاد في إسقاطه على الواقع، وليس الحكم على النص بالصحة أو البطلان انطلاقًا من مسلّمات خارجة عن إطار الوحي.

خاتمة: السنة حصانة لا عبء

في الختامِ، إن مصطلح "هندسة النقل" في جوهره

يمثل مأزقًا معرفيًا وروحيًا عميقًا. هو محاولة لترويض الوحي ليلائم العصر، بدلًا من الارتقاء بالعصر إلى مستوى الوحي. السنة النبوية الصحيحة ليست عبئًا ثقيلًا نبحث عن طريقة للتخلص منه، بل هي الحصن الحصين للأمة، والمنبع الصافي لدينها، والبيان العملي لكتاب ربها.

الخطر ليس في نقد المتن المنضبط، بل في "الهندسة" التي تقوم على أسس دخيلة، وتؤدي إلى تفريغ الدين من محتواه، وإحلال الأهواء والمذاهب البشرية المتقلبة محل النصوص الربانية الثابتة. وإن واجب الأمة اليوم هو أن تبذل جهدها في فهم سنة نبيها فهمًا صحيحًا، وتنزيلها على واقعها تنزيلًا حكيمًا، وأن ترد كيد الكائدين في نحورهم، وتظهر وجه الحق الأبلج، داعية إلى الله على بصيرة، مقتفية أثر سلف هذه الأمة، الذين ما عُصموا من الزلل إلا بتمسكهم بالوحيين: الكتاب والسنة، وفهمهم على مراد الله ورسوله.
والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.